وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة تكريت
كلية التربية للعلوم الإنسانية
قسم التاريخ
المرحلة الثالثة
المادة: فلسفة التاريخ

التدوين التاريخي في عصر النهضة

أ. د. مثنى عباس عواد

عصر النهضة الأوربية:

شهدت أوربا منذ القرن الرابع عشر ما عرف بتأريخها الحضاري بعصر النهضة، حيث يعرف هي حركة ثقافية بدأت في دويلات المدن الايطالية كنجوة والبندقية التي كانت لها علاقات تجارية مع مدن الشرق، أتاحت لها الاتصال ببعض مراكز الحضارة العربية الإسلامية والتعرف عن كثب على بعض الجوانب الحضارة، ثم انتشرت النهضة من شمال ايطاليا إلى بريطانيا وفرنسا واسبانيا وبقية أرجاء أوربا، واستمر عصر النهضة حتى القرن السابع عشر، وقد يتراود إلى ذهن بعض الطلاب سؤال ما هي مميزات عصر النهضة، وبدورنا نرد في هذا السياق فنقول تميز عصر النهضة بمميزات عدة، منها تقليص نفوذ الكنيسة الكاثوليكية وانحسار هيمنتها على الشأن السياسي والاجتماعي والفكري، وثم تلاشي هذه الأهمية في الحقب التي تلت النهضة، وقد ركز الأوربيون اهتماماتهم في عصر النهضة على الدراسات التي تخص الانسان والمجتمع، وتناولهما من منطق واقعي دنيوي بعيداً عن التحليلات والرؤى الدينية اللاهوتية، وهو توجه فكري وثقافي عرف ذلك المصطلح الإنسانيات، وكان له تأثير فاعل في عملية تدوين التاريخ وفي الفكر التاريخي بصورة عامة، لاسيما بعد حركة الاصلاح الديني التي بدأ آثارها مارتن لوثر بوجه التسلط البابوي.

ثم بدأت عملية التدوين التاريخي تخرج شيئاً فشيئاً من دائرة احتكار الاكليروس أو رجال الدين، إذ أخذ بممارستها رجال الفكر والأدب والفلسفة بعد أن أناطها بهم السياسيون ورجال الدولة، وهذا جعل الصبغة الدينية التي اتصف بها التاريخ في القرون الوسطى تنحسر لصالح حلة زمنية، بدأ التاريخ باكتسابها آنذاك، وقد ظهر ذلك واضحاً في تفسير حوادث التاريخ ومسيرة التاريخ العام، فأصبحت حوادث التاريخ تفسر تفسيراً على أساس علمي واقعي بعيداً عن الخرافات والقصص والأساطير، ثم أخذت التفسيرات تتبنى أفكاراً أخرى كفكرة الحركة الدورية، والتي عرفها الفكر منذ عصر هسيود، ويمكن القول أيضاً أن معظم كتابات عصر النهضة تميزت بعد مميزات ألا وهي الموضوعية والوضوح والابتعاد عن الصيغ البلاغية المتكلفة، وكانت توجهاتها العامة تحط من شان القرون الوسطى وتعدها حقب تخلف وتراجع للعقل الانساني وأسر لحريته وابداعه.

وقد مثل الفكر التاريخي لعصر النهضة وتوجهاته عدد من الايطاليين أبرزهم ليوناردو بروني وفلافيوس بلندوس وفرانسيسكو غويشيرديني، وقد شكل الفلورنسيون من هؤلاء من خلال

مؤلفاتهم التاريخية التي تناول فيها مواضيع عديدة درسوها على وفق رؤى فكر النهضة مدرسة تاريخية فلورنسية، والتي أصبحت من أهم أسس التقدم الذي شهده التاريخ في أوربا في عصر النهضة.

كذلك ظهر خارج ايطاليا عدد من المؤرخين كان اشهرهم بوليدور فرجل، وهو ايطالي عاش في انكلترا وكتب تاريخها في عهد الملك هنري السابع، وأصبح منهجه التاريخي نموذجاً اقتدى به عدد من المؤرخين الذين أعقبوه، والسبب في ذلك انه وضع الأساس التاريخي لتاريخ نقدي تحليلي عن انكلترا، حينما نقض القصة القديمة عن تأسيس بريطانيا بواسطة بروتس التراقي، كذلك كان السويدي يواكيم فون واط والاسكتلندي جورج بوكانان والالماني بيس رينانوس والاسباني دييغو مندوزا، ولا يقتصر الأمر على العلماء أو الفلاسفة، فقد برز عدد من الرهبان خلال عصر النهضة وأبدو اهتماماً بدراسة التاريخ وتدوين أحداثه على أسس علمية موضوعية علمية، تختلف عن التي كانت سائدة من قبل، وكانت الخطوة الأولى للوصول إلى هذا الهدف هي أن تنبه بعض هؤلاء الرهبان إلى أهمية الوثائق الكثيرة التي تحتفظ بها الأديرة، وذلك أنها تحتوي مادة تاريخية غزيرة تساعد إن أحسن نقدها وتحليلها على دراسة التاريخ دراسة موضوعية تكشف حقائق الماضي، وكان هؤلاء الرهبان البندكتيون في دير سان مور في فرنسا، وعدد من الرهبان الجزويت في بلجيكيا وفي مقدمتهم الراهب يوحنا بولاند الذي تأسس باسمة جمعية للدراسات التاريخية، لا تزال قائمة إلى الآن تعرف باسم جمعية البولانديين، وقد حاول بعض هؤلاء الرهبان كتابة التاريخ على أسس نقدية تحليلية ينأى بذكر المعجزات، ويقوم بدراسة المصادر التاريخية والروايات التي اعتمدتها هذه المصادر بعمق وموضوعية.

وقد تمكن أولئك الرهبان من الكشف عن كثير من الحقائق التاريخية، ونقض الصورة الزائفة المتداولة التي كانت تشوهها، ومن ذلك ما قام به الراهب لورنزو فالة بهبة قسطنطين، والتي ورد فيها أن الامبراطور قسطنطين الأكبر قد وهب روما إلى البابا سلفستر الأول لتكون ملكاً للكرسي البابوي، وذلك لأن السيد المسيح قد وهبها إلى قبل ذلك لحوارية بطرس حيث اكتشف فالة أن البابوية قد زورت هذه الوثيقة منذ خمس قرون من التاريخ، إذ وقع عليها ووضع عليها ختم مزيف لقسطنطين، مما أحدث ردود فعل عنيف ضده، لاسيما وأن نقده تجاوز الجوانب التاريخي ليشمل نظم الكنيسة والعقيدة المسيحية.

لقد شجع العمل ما قام به فالة العديد من الرهبان على دراسة الوثائق في الأديرة والكنائس، مما مهد بعد ذلك لظهور علم جديد عرف بالبالوغرافيا، وكان مجاله دراسة المخطوطات والكتابات القديمة، والذي ما لبث حتى تفرع عنة علم النقوش، الذي اختص بدراسة النقوش والرسوم لاستخلاص ما يمكن استخلاصه منها مادة تاريخية، ثم ظهر بعد ذلك من المجال نفسه علم الآثار.

من جانب آخر يمكن أن نلاحظ أن عصر النهضة شهد انبثاق لتوجهات في النقد التاريخي لم تكن معروفة من قبل، وقد افرزت محاولات جديرة بالذكر كونها الأولى من نوعها لوضع الدراسات التاريخية، إذ قام الفرنسي جان بودان بتأليف كتاب في منهج الدراسات التاريخية سنة ١٥٧٦م ضمنت آراءه عن التاريخ ودراسته التي يرى أنها لا ترتبط بأمور الدين وعلم اللاهوت، بل هي ذات أهداف براغماتية خاصة بالأخلاق والسياسة وتتعلق بعالم الحياة الدنيا للإنسان، إلا أن التاريخ مع كل تلك الخطوات الحثيثة التي كان يخطوها التاريخ خلال عصر النهضة ظل حتى منتصف القرن السابع عشر فرعاً ثانوياً قليل الأهمية من فروع المعرفة، يزاوله غالباً الرهبان وبعض حواشي الملوك، الذين دأبوا على تشويه حقائق التاريخ تزلفاً لساداتهم وتقرباً إليهم، وإن لم تخل كتاباتهم من وجود مادة تاريخية نافعة.

وأما الرهبان فعلى الرغم من أن كثير منهم كان معنياً حتى ذلك الحين بتدوين تاريخ الشأن الديني وأخبار الكنيسة وكرامات الباباوات والقديسين، الذي لا يشكل أهمية من الناحية التاريخية العلمية، فان آخرين قدموا خدمات ذات شأن كان منها مجموعة تاريخ العصور الوسطى، الذي شرح في أعدادها ونشرها في باريس الرهبان البندكتيون منذ منتصف القرن السابع عشر، على أن التاريخ بدأ منذ القرن السابع عشر يثرى ببعض الأفكار التي دعمت بعض جوانبه العلمية والموضوعية، من ذلك ما كان يرى الفيلسوف فرنسيس بيكون واضع المنهج التجريبي في دراسات علوم الطبيعة، من أن التاريخ يجب أن يهتم قبل كل شيء بالماضي من أجل الماضي في إشارة لنفي فكرة مشيئة الإلهية، كذلك يجب على المؤرخ أن يمحص حوادث التاريخ، ويجب أن يعللها وأسبابها، وعلى الرغم من أن بيكو لم يشتهر كمؤرخ على الرغم من شروعه بتأليف كتاب عن الملك هنري السابع عام ١٦٢٢م، وشروعه بكتابة مؤلف في التاريخ العام لبلاده، فإن فكره التاريخي كانت له آثار عريضة ودائمة في التاريخ الواقعي.

كذلك نشأت في النصف الثاني من القرن السابع عشر مدرسة تاريخية انتهجت أسلوباً جديداً في التفكير التاريخي هدفه التوصل إلى التاريخ الذي يستند إلى النقد والتحليل أمر ممكن، وكان بمثابة تحد من قبل المؤرخين المنتمين لهذه المدرسة، ومنهم ديكارت، الذي كان يرى أن التاريخ ليس فرعاً من فروع المعرفة، إذ رأى هؤلاء أن دراسة التاريخ يمكن أن تستند على الشك العلمي التي استندت إليه فلسفة ديكارت، واطلقوا على عملهم اسم تدوين التاريخ الديكارتي ووضعوه على أساس الشك الديكارتي منهج بحث للتاريخ تالف من عدد من القواعد العامة، وأيضا كمعلومة إضافية عن عصر النهضة هو العصر الذي يبتدأ من رحلة كرستوفر كولومبس الأولى وينتهي بوفاة اليزابيث الأولى ملكة انكلترا ووفاة هنري الرابع ملك فرنسا، وقد حدثت تبدلات عميقة في أنظمة الدول الداخلية، وفي سيماء أوربا العامة وحتى في علاقتها مع القارات الأخرى، لذا تختلف حوادث هذا العصر اختلافا كلياً عن العصر الوسيط.

أما القرن الثامن عشر فقد وصف بأنه عصر التنوير في أوربا، أو عصر العقل، لما ظهر خلاله من فلاسفة ومفكرين وأدباء وعلماء في مجالات عديدة، وكان من بين هؤلاء مؤرخون استطاعوا من خلال مؤلفاتهم التاريخية التي أقاموها على أساس موضوعية أن يثبتوا أهمية دراسة التاريخ، مما جعل موضوع التاريخ يحظى منذ ذلك الحين بتقدير عامة الناس واهتمامهم كمجال بارز من مجالات المعرفة، على الرغم من أن هؤلاء المؤرخين لم يتمكنوا من أن يثبتوا كون التاريخ علماً له أصوله وقواعده في الدراسة، ولم يتمكنوا من الارتقاء به ليصبح ضمن المواضيع التي كانت تدرس في الجامعات، لكن التاريخ في الوقت نفسه أخذ منذ ذلك الوقت يلتمس طريقه كي يكون موضوعاً قائماً على أصول علمية وقواعد بحثية خاصة، ويبتعد عن مجالات الأدب والأساطير والخوض في كرامات القديسين وخوارقهم أو التزلف للملوك والساسة وخدمة أغراضهم الخاصة، فظهر في ذلك القرن عدد من المؤرخين الذي حاولوا أن يقيموا دراساتهم التاريخية على أسس موضوعية ومفاهيم نقدية، الأمر الذي رفع من مستوى هذه الدراسات وقرب التاريخ من مرحلة العلم التي بلغها بعد منتصف القرن التاسع عشر.